# بين إدلبو وجلفار

قد تكون قصتنا جميعًا (أنا وأنت وهو)

رواية

د. محمد محمود أسعد



اسم الكتاب: بين إدلبو وجلفار (رواية)

اسم المؤلف: د.محمد محمود أسعد

رقم الإيداع القانوني:١١٥٦٥/ ٢٠٢١

الترقيم الدولي:١/ ٥٥٤/ ٧٨٣/ / ٩٧٧/ ٩٧٨

الناشر: مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

سنة النشر: ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

رقم الطبعة: الطبعة الأُولى

**الطبعة الأُولى**

**١٤٤٢هـ-٢٠٢١م**







**الناشر**

**مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع**

**جمهورية مصر العربية**

**هواتف: ٣٥٧١٢٢٣ - ٠٤٨ - ٠٠٢**

**المبيعات: تحويل داخلي ١٣**

**الفاكس: تحويل داخلي: ١٦**

**إدارة النشر: ٠٠٢٠١٠٦٦٤٤٤٧٦٦**

**رقم المطبوع: ١/١٠٠١٢٢/٢٣٨٧٢**

**تاريخ: ١٣ يوليو ٢٠٠٩**

**المجلس الوطني للإعلام- إدارة متابعة المحتوى الرقمي**

**دولة الإمارات العربية المتحدة**

# إهداء

**إلى قلوب تهوى العطاء، إلى من أكنُ لهم العرفان بالجميل بجميع مفاصل حياتي أهديهم باكورة القطاف هذه:**

- **إليكُما يا عالمي الخاص ووطني الحنون.. أبي طيب الله ثراه، وأمي الحنون.**
- **إليكِ يا رفيقة العمر وريحانة الدرب.. زوجتي أم محمود**
- **إليكَ يا تاجي وسندي.. أخي مصطفى**
- **إليكَ أيها الشامخ في جلفار.. الوالد والأخ الكريم.. د. محمد إبراهيم منصور**

# إضاءة

يعلم كثيرون بأن ثمار أول القطف (بداية الموسم) في معظم الأحيان غير ناضجة رغم أنها الأغلى والأنفس على قلوب زارعيها لا لطعم لذيذ فيها بل لمجرد أنها بشائر خير لموسم القطاف وجني الغلال.

من هذا المنطلق أضع بين أيادي القراء الأعزاء باكورة أعمالي المطبوعة

"**بين إدلبو وجلفار**" وإن كان قد سبقها الكثير من المقالات المنشورة في عدد من الصحف اليومية والمجلات الدورية في دولة الإمارات العربية المتحدة بدءاً من عام ١٩٩٨م سائلاً العلي القدير أن تنال إعجابهم طالباً منهم الصفح والعفو عن أي خطأ أو إسهاب قد بان دون قصد.

"**بين إدلبو وجلفار**" ليست حكاية شاب يُسمى عبد الله (عبدو) حمل الوطن والأمل في حقيبة سفر وراح يغرد خارج سرب الوطن والأهل رغم كنزه البشري الكبير، إنما قد تكون أيضاً قصة كل شاب عربي (أنا وأنت وهو) تطلع ومازال إلى الهروب من حاضرٍ مأزوم في بلده الأم عبر نفق السفر إلى مكان آخر قد يجد فيه بصيصاً لسد الرمق ومجافاة الفقر وإثبات الذات ولو بعد حين.

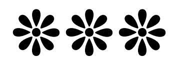
"**بين إدلبو وجلفار**" ليست قضية ذاتية.. وليست قضية شاب عربي عشق السفر ثم احترق فيه، ولا هي قضية صغيرة نختزلها بسد الحاجة فقط.. إنما هي قضية بحجم حياتنا اليومية.. مسلسلها لم ينته، قضية كن أو لا تكون.. قد تتشابه هكذا قصص وقد تختلف ولكنها في النهاية تعود الى منشأ واحد وهدف واحد: الهروب من واقع صعب خوفاً من غدٍ أصعب.

من مفهوم أن سرد القصص ما زال وسيلة مهمة لنقل التجارب البشرية، جاءت فكرة كتابة

"**بين إدلبو وجلفار**" فُرب قصة خير من ألف نصيحة.. نعم إنها قليلة في صفحاتها لكنها غنية في مدلولاتها، تحكى في فصولها السبعة بطريقة السرد بأسلوب المتكلم والمونولوج والتضمين، فراوية القصة هي حياة- زوجة بطل القصة ورفيقة دربه التي جاورته المسير جنباً إلى جنب على أشواك الحياة ورياحينها، وهي المراقب بعين المهتم والناصح طيلة الفترة الزمنية لأحداث الحكاية.

مع خالص التحية والتقدير

المؤلف




من إدلبو..

قَطعاً ليس حافي قلب، ولا متيم هجر ولا هجران، ولا طريد وطن،

لكنه هرب مللاً من حكايات ماضيهم وأوجاع حاضره، من آلامه، ليبحث عن غدٍ يرويه..

هرب من جبل التاريخ.. وعتمة الأمس.. وصقيع الواقع.. ليبحث كغيره من أبناء جيله عن جبال الذهب.. شمس الآن.. الذات.. والآت..

من جذع زيتونة عصيّة، وأنين مدن منسية..

من ندرة حوائج مقضية..

من كتاب مهجور، وصاحب مال مبهور،

وحلم منشور مشوّه الجذور..

تطلع للتغيير..

آلام عبد الله (عبدو) وآماله.. توأمان.. بطلتا قصة لا تنتهي.. سببان رئيسيان لقضيته الأم.. قضية وجود.. (كن أو لا تكون) في مجتمع يرحب بمن اكتنز أكثر من المال، ويصد وينأى بتهميش عن كل من لم تسعفه لذلك الجمع والاكتناز أي ظروف.. لا لذنب اقترفته يداه ولا لجهد ضنّ فيه..

ما أقصى أن يُساكننا التهميش..!! ما أصعب أن يُجالسنا الصمت ونقبع في عتمة المكان والزمان..!!

لإثبات وجوده، أيقن عبدو (ابن التاسعة والعشرين ربيعاً) أن عليه أولاً الخروج من عَدَم أُضرمت ناره في هشيم آنِه المأزوم دون احتمال لمزيد من الإرهاصات والمغامرات.

إذاً كان لا بد له من مشروع تغييرٍ ما..!!

أدرك عبدو أن السبيل الوحيد لتسلق السلم الاجتماعي يمر بوجوب تحقيق الإنجازات، وأن حياة المرء لوحة لا يفهمها بليد، فيها شتى أشكال التضاريس، قلما تتلاقى فيها أيدلوجية ومنطق، وأن على المرء مهما كان بسيطاً أن يكون زعيماً لنفسه على أقل تقدير، مستقلاً بها، بعيداً عن ممالقة الآخرين، ولن تتحقق لأي كان صفات الزعامة الفردية تلك أو المجتمعية إن لم تتحقق له عناصر الشخصية القوية والمستقلة، فعلى المرء أن يكون حراً لا يرضى بأنصاف الحلول يعرف ما يريد وكيف يصل، رباناً ماهراً يقود مركب حياته إلى شاطئ آمن بعيداً عن ملاطمة الأمواج، قائداً أبعد همة وأقوى عزيمة ليرتقي بنفسه بين النجوم.

سعى عبدو كغيره من أبناء جيله للتخلص من حاجة الاعتماد على الآخر مهما كان، ومن الخضوع إلى حاضر مأزوم، سعيه كان مشروعاً -بدأه منذ سنوات عدة بعد نيله إجازة البكالوريوس -نحو تغيير بعيداً عن الثبات أو الركون إلى محيط بدون أمل مرجو فيه.

انتظر شروق الشمس ومغيبها مرات ومرات، وتوالت سنوات خمس بعد التخرج.. دون أن تحمل إليه في أيامها أو لياليها أي مفاجأة قد تكون حبلى بتغيير. ما أصعب الانتظار. أيقن كغيره بأنها سنوات عجاف لا محالة، رغم تجارب عدة قام بها كغيره من شباب بلدنا الجميل ليكون طائراً مغرداً في فضاءات أخرى.

حَلُمَ عبدو كمعظم شباب الريف. أن يُحلق مرات ومرات في فضاءات أخرى خارج الحدود لعله في مرة ما يطول في تحليقه إلى شمس لا تغيب وعين لا تنضب، فشمسنا هنا أمست مجرد قمراً وضّاءً في نهارات شتوية متقلبة، في ريفنا أطال الشباب سهرهم وأعقبوه برقاد طويل، فيها جداولنا راحت تشح أكثر يوماُ بعد آخر. فيها أمسينا كأننا عكسنا عن غير قصد منطق الحياة (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) الفرقان ٤٧.

مخاوف عدة راودتني عن غير قصد من طول انتظار عبدو (زوجي وأب أولادي) وتعلقه بذلك الحلم الجميل. مشروع التغيير بسفر، من أنه يسير في طريق مجهول تغيب عنها الأهداف، كان خوفي أن تغرب شمس آماله وتتلاشى أحلامه في دوامة التيه بين منازع الواقع ومرامي الغد.

تعجبت وتساءلت: هل آماله واقع مؤجل؟! هل يقتات في مشروعه على شتات أحلام خُلقت أصلاً كي لا ترى نور الواقع؟! خِفت عليه من أن يتاجر بآماله في سوق بضاعته أوهام وسراب. فلئن كان ذلك فعلاً. حسبي من أن غلال ربحه ستكون خسارة، حينها أخشى عليه من الانكسار.

مشروعه للتغيير لم يكن أبداً سببه بلدنا الجميل. ادلب (أرض الزيتون أو إدلبو.. مكان تجميع وتسويق المحاصيل)، وإنما لما فيه من ندرة فرص وضعف استيعاب لطاقاته البشرية، وقيل وقال، وتشتت، وتهميش لفقراء الجيوب، ومحاباة مجتمعية عمياء لأصحاب الثروة والجاه.. فيه أنا ليس بأنا، وهو ليس بهو، وهم ليسوا بهم، والأهم من هذا وذاك أن الـ " نحن" فقدت معناها الحقيقي في السراء والضراء إلا ما ندر.

رياح الغيرة وتقليد الأقارب والجيران عاتية على قاطني الريف، عصفت بحياتهم اليومية لتستنفذ طاقاتهم المادية والذهنية يوماً بعد آخر، في ريفنا فقط أصبحت عدوى الفقر أسرع وأقوى من عدوى المرض، لذا انكب شبابنا بالتفكير فقط بالهروب ليس خوفاً من العدوى وحسب بل قبل أن تتفاقم وتقضي حتى على الأمل. هجر معظمهم مقاعد الدرس من أجل خاطر الدولار وأثره المجتمعي.

في ريفنا عادة ما يُتوّج الفرد لمال قد لا يعرف أحدٌ كيف جناه، في ريفنا محاباة هوجاء لأغنياء الجيوب، وتجاهل مقصود لأغنياء العقول.

للأسف أمسينا نتخلق في عادات لا نفكر فيها من حيث الاستحسان أو الاستهجان لذا ظهرت هنا وهناك ملامح نفاق مجتمعي وفقر أخلاقي أبلى حب المال فيها بلاءً حسناً في خطف عقول الكثيرين فصاروا يعظمون صاحبه وإن كان صغيراً لا لفائدة يرجونها منه بل لماله، فيه فقط تتراءى لهم موجبات الإجلال والإكبار، للأسف اعتادوا على تكريم القيم لفظاً وتحقريها عملاً.

لقد أمسى ريفنا بقاطنيه أشبه بليل داجٍ مكفهر، نسماته عاصفة هوجاء، سمره قيل وقال، بروقه باهتة، ورعوده واهنة، وعيشه مكدّر، كثيرون من قاطنيه جثوا في لياليهم ونهاراتهم تحت قدمي المال علهم يجدون طريقاً آخر للوصول إليه لم تخطر ببال بشر، نفوس هائجة محتدمة لا عزاء لها إلا أن تكنز المزيد وتتماشى مع عجلة دورة الحياة بسموٍ أو دنو، لا يهم..!!

نعم لم يكن سواد البلد إلا من سواد قلوب قاطنيه وجشعهم، فتمرمر زمانهم وغص المكان بشبابهم الذين سعوا للهروب من تلك السوداوية والفقر فجابوا أرجاء المعمورة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى أقصى جنوبها بحثاً عن مال.

لكن. بلدنا يا له من بلد.. إدلب الخضراء (إدلبو. وأزهر صغير). وادعٌ رافلُ بأمان في شمال الوطن(سورية).. اسم من ذهب.

جميل. له قصة خالدة مع الجمال، طبيعته حسناء. كطبيعة الوطن الغناء. من شماله إلى جنوبه ومن غربه إلى أقصى شرقه، دائماً ساطعاً كالشمس، لو أُستنطقت الجلاميد فيه لنطقت في أفنانه شعراً وأدبا، ولو شربت من رحيقه الصحراء لتحولت إلى رياض تتأرجح فيها الأزهار والرياحين. بلدنا.. وطن للشمس والأمان، أنشودة الفؤاد والعنادل، درة الأفنان والبلدان، وقصيد العتابا والميجانا.

جميل. لأنه دوحة خضراء ولوحة حسناء مزدانة بشتى ألوان ومفردات الطبيعة، في غربه. غابات جبلية خلابة، وفي شماله جبال جرداء وأخرى مكسية بأنواع متعددة من الأشجار، وفي شرقه مساحات شاسعة واسعة من سهوب وسهول زراعية تتلون مرات بحمرة دم وأخرى بصفرة الصحراء، وفي جنوبه أراض زراعية خصبة وكروم متنوعة.

جميل. له أهزوجة مع شروق الشمس، اعتاد قاطنوه على ارتشاف قهوة صباحهم على معزوفات باعة ثابتين ومتجولين، وزقزقة عصافير، تبدأ معها حياتهم اليومية من جديد.

جميل. له تناغم عذب مع المكان، موقعه المتميز جعله على مر العصور والأزمان. معبراً ومرتعاً للجيوش العابرة والغازية، ومركزاً هاماً على طريق الحرير، وممراً استراتيجياً للقوافل التجارية بين بلاد الغرب والشرق.

جميل. له حكايات متنوعة مع التاريخ، سليله بحلوه ومره، قيل في معاني مسماه الكثير.. كبد القلب، وروح المكان، وهواء القلب، وإله الزراعة، ومكان تجميع الغلال وتسويقها (إدلبو).

بلدنا.. أنشودة يعزفها الناي الحزين على ما فات، متحفاً زاخراً بالأوابد، وإرثاً لحضارات وشعوب تعاقبت على العيش على أرضه، تنعمت فيه، وهنأت بغلاله، وصدق من قال أنَّ بعض البلاد تؤذي أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز وأن الجمال يجني على اهله في أكثر الأحيان، ففي شتى أرجائه تزينت مدنه وقراه بقديمها وحديثها بألوان الحياة على رقعة جغرافية قاربت الـ ٦٠٠٠كم$^{٢}$.. اكتظت هنا وتباعدت هناك. فقد خفقت رايات التاريخ على بلدنا لعهود وتعاقبت عليه شعوب شتى منها الحضارات الآرامية، والآشورية، والحثية، والرومانية، والبيزنطية وحتى العصور

الإسلامية المختلفة، حتى قيل أنه لا تغيب عن عيون المتجول فيه مشاهد الأمس (فيه فقط ثلث آثار الوطن)، تناثرت مدنه المنسية هنا وهناك وصار باسمها المهرجانات.

جميل. لأنه ساحر فتّان. يا له من بلد. إحدى درر بلاد الشام بخيلها وليلها، بشموخها وعشقها، ما أن تنأى عنه إلا أن تعود إليه طال الزمن أم قصر، أيقن محبوه أن في هجره والبعد عنه سيكون لهم الضنك والحنين، لكن ما فائدة البقاء فيه لشباب مثل الورد إن أضاعوا أوقاتهم متسكعين في دروبه وزقاقاته محترقين بلهيب الحاجة دون أمل منتظر قد يلم شتاتهم ويسعى لكبح عجلة ارتباكهم.

لذلك، وخوفاً من أن يفوته قطار العمر من تحقيق حلمه بغد جميل في مرتع الصبا بين الأهل والخلان. تطلع عبدو .كغيره .إلى تحقيق مشروعه.. التغيير بسفر.. لعل فيه يخمد ذاك العشق اللاهب الذي توهج .وما زال .عند الكثيرين من شباب اليوم خشية إملاق ظهرت أعراضه في ريفنا الجميل. فمع تغييره المنشود. أيقن أن حاضره سيزهر وإن كان مأزوماً وغده سيبنى إن شاء الله.

لذلك، كان له هكذا مشروع أمراً هاماً وضرورياً كأي فرد كي يواكب مفردات الحياة العامة، وكي لا يكون نكرة مجتمع.. بلا آمال ولا طموحات، بلا أحلام لغدٍ زاهٍ جميل، كأنه راضٍ مستكين في قارب متهاو تتقاذفه الأمواج في يم الحياة.

أدرك عبدو أن التغيير ليس دائماً سهل الممشى وأنه ليس درباً سريعاً للنجاح، وأنه أيضاً ليس وليداً للحظته كما يظن البعض، بل لا بد أن يُؤسس ويقوم على جد ومثابرة وإرادة قوية أولاً، كي يصنع منه ومعه عالماً جديداً يتعايش ويواكب فيه حياة الآخرين ويجني فيه غلال التفوق والسداد وإن جاء ذلك متأخراً. فدائماً الأشياء الجميلة تأتي متأخرة والانجازات العالية غالباً ما تأتي نتيجة لأحلامٍ كبيرة ، وصدق من قال:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة     فإن فساد الرأي أن تترددا

منذ نعومة أظفاره، حَلُم عبدو أن يكون نافعاً لمجتمعه، فلم يألُ جهداً لهذا الحلم بل سعى إليه في ربيع عمره مفنياً عقدين ونيف منه في طلب العلم حصل فيها على درجة البكالوريوس وبدأ في الدراسات العليا بالإضافة لدورات تدريبية عدة كان أهمها برامج الحاسب الآلي ولكن هيهات هيهات له ولمن مثله أن يتابع في الدراسات العليا وحالنا مأزوم بلا عمل ولا دخل ، سعى بربيعه ليسمو بصيفه، سمعته مرات يقول لمن حوله وخاصة من رضوا بالقليل: الحياة كنهر كل منا يغترف منه بحجم طموحه، أفكارنا وأحلامنا تشكل شخصياتنا وحياتنا فإن لم تصقلها بنفسك سيعبث بها من حولك.كان يشجع من حوله على تطبيق قاعدة ٢٠/٨٠ كي تتيح لهم الجمع بين الإنجاز والتميز عن أقرانهم. تطلع كغيره من أبناء جيله أن يبدأ تأسيس مشروع الغد في ربوع بلدنا الجميل، حاول وجرّب. لكن كانت جل محاولاته هشة. بلدنا لم يكن جميلاً معه آنذاك. رغم أنهما كانا المجنون وليلاه، بداية صيفه كانت باردة. كأن غلاله لم ينضج بعد، أو حلاوة محصوله لم تُستساغ بالبلد!!

ضاقت الطاقة الاستيعابية في إدلبو (مكان تجميع وتسويق المحاصيل)، وعجزت عن منحه فرصة عمل كقيمة إنسانية يستشعر فيها وجوده واستقلاليته، لذا سعى كغيره بالتسويق لها في مكان آخر.. خاطب الكثير، أرسل إلى هنا وهناك أوراقه مبيناً فيها من هو ومن يكون، وعَده كثيرون، انتظر من يصدق ويتصدق عليه بخبر ما قد يطفأ ظمأ سنين من الانتظار.

طال الانتظار وفات الميعاد أو كاد. عزاؤه كان فقط في (كل تأخير فيه خير).

في بداية الأمر، لم يكن حلم مشروعه بالتسويق لغلاله خارج البلد في مكان محدد، أمله كان أوسع من واقعنا، المهم أن يقتاده يوماً ما إلى خارج الوطن هناك حيث مخدع الشمس. فلعل هناك شموسهم غير شمسنا، ولياليهم نهارات، ورقادهم يقظة، وجداول أنهارهم تسير. حلُم لو أنه ترك ذلك الجبل الشامخ قربنا ورحل إلى نهر أو

بحر، برحلته تلك أيقن أنه سينجو حتما من سبات ليل مديد إلى معانقة وجه الشمس في صحوة النهار، حلُم بأن هكذا تغيير سيجعل له الوعر سهلاً ومعه فقط سيرحل بنا إلى ما وراء الغيوم يسمو بين يسمو بعدما طال علينا المكوث في دياجير الظلام.

أيقن أن سفره يجب أن يترافق مع حقيبة مليئة بخيرات وخبرات من البلد. فعمل لذلك لأنه عرف أن إبحاره في بحر مفتوح أو نهر متدفق يجب أن يكون في مركب فيه مجاديف عدة بعيداً عن أي مجازفات أو مخاطر.

كان دائم البحث عن العشرين بالمائة كي تمنحنا بعون الله ٨٠٪ من النتائج المرغوبة، أحلامه قادته إلى أن كل دروبه ستأخذ به يوماً ما إلى مكان ما خارج الحدود. إلى مخدع شمس، إلى نهر جار وبحر رؤوم. إلى إسراء فيه تغيير وتطوير، لكنها كانت في البداية مجرد خيالات عاش وعشنا فيها أيام وليال طوال.

في البداية تاهت عنه الأماكن، لكن لم يته عنه ذلك الحلم بمشروع السفر. سكن فيه. عاشه بكل تفاصيله، أصبح جزءاً لا يتجزأ من مفردات حياته، قاسمه ليله ونهاره، يقظته ومنامه، عرف أن مخدع شمسه خارج الحدود. عنوانه فيه وقتئذ بلا أرقام ولا حروف.

لم يقتنع عبدو بمفهوم الهجرة الداخلية من ريف فقير. يعتمد بمن فيه على غلال الأرض لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بما تغدق عليها السماء في مواسم مطرية كانت في معظم السنوات الماضية يبابا جدباء. إلى مدن ذات نشاط اقتصادي أوسع قليلاً. كما قرأنا عنها في المقررات المدرسية.

فطالما أنه سيكون بعيداً عن الاهل والبلد. تطلعاته كانت لمدى أبعد وأوسع من هجرة داخلية لا تثمن ولا تغني من جوع، فكّر بالتغريد خارج الوطن هناك حيث يختصر الزمن وتثبت الذات، ويثمن المحصول بذهب. فعمل جاد لعام واحد في الخارج أفضل

من خمسة في البلد، فكيف إن امتد النصيب لعشرة، نعم تفهم الجميع في ريفنا هذه المعادلة ١×٥.

تطلع كمعظم الشباب العربي إلى العالم الجديد. أمريكا، البرازيل، جزر أنتيغوا. . قرأ وسأل واستمع قبل أن يتخذ قراراً ربما قد يكون صائباً في حينه، وربما لا، فلئن كان قراره وقتئذ صائباً، كان عليه أن يشهد أمام سفاراتهم. كعادة الكثيرين ممن سبقوه. فجراً يلف المكان بسكون يبدده مخلوقات أشبه بديوك هجرت الرقاد لتعلن عن مللها من رقاد طويل وميلاد يوم جديد. تراه يقف مع مئات بل آلاف الشباب الطالبين والحالمين بتأشيرات سفر غالية على قلوبهم إما لدفعهم مئات الألوف أو بدون، متطلعين إلى حياة رغيدة وراء البحار والمحيطات، متشتتين بأفكارهم وآلامهم، متأنقين، متراصين متلاصقين في طوابير لامتناهية أمام تلك السفارات كأنهم معلبين معدين مسبقاً إلى تصدير. بدون وعود أو حظوظ حتى لو كانت ضبابية قد تمنيهم بالولوج يوماً ما بشرعية إلى بلاط العالم الجديد ولو بعد حين.

إن اتخاذ مثل ذاك القرار آنذاك لم يكن أبداً سهلا، خصوصاً أنه متزوج ولديه أطفال. تريث وزاد في السؤال والاستفسار قبل أن يتخذ القرار.

مرات ومرات شاهدته يقرأ ويُعيد كلمات قالتها الشاعرة الفنزويلية المهاجرة أيما لازاروس حينما رأت تمثال الحرية في نيويورك، والتي نقشت فيما بعد على قاعدة ذلك التمثال.

"Give me your tired, your poor,

Your huddled masses yearning to breathe free,

The wretched refuse of your teeming shore.

Send these, the homeless, tempest-tost to me,

I lift my lamp beside the golden door!"

" أعطونا جماهيركم المتعبة، الفقيرة

التواقة إلى أن تتنفس في حرية

ابعثوا إليّ بنفاية شاطئكم المزدحم

أولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن

فها أنا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي...!"

مرة سألني وأجاب نفسه بالحال:

.هل هذا التمثال ينطق بما يجول في خواطر معظم شبابنا العربي؟ هل يا ترى يصفنا أم يصف أناساً غيرنا؟ فنحن والحمد لله لنا مأوى ووطن لكننا نتطلع إلى غد أزهى مثلنا مثل الآخرين.

كانت أحلام عبدو بالسفر إلى دول وبلدان كثيرة لكن كانت دائماً تتلاشى أمام حائطي سماع فشل صديق بالحصول على تأشيرة الدخول (الفيزا) أو التردد في اتخاذ القرار النهائي. فكّر وفكر ببلدان عديدة، لكنه أخيرا استهدى بنصائح من سأل.

نصائح عدة جاءته بسؤال أو بدون. باعتباره متزوجاً ولديه أطفال. عليه التفكير ببلاد العرب أوطاني وتحديداً شطآن الخليج لأن سفره سيكون مؤقتاً بعد أن جرّب حظه العاثر خارجها مرتين ورأى ما رأى من تهميش وهدر شأن.

أقنعه الناصحون حينها بأننا عرب ومسلمون. لنا حضارتنا وديننا وشرقيتنا ما أشرقت شمس وأفلت أخرى، تبقى وجهة قبلتنا. الكعبة المشرفة. مرآتنا في السماء، حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات، وإليها وما حولها يشد العزم والترحال.

آذانه كانت دائماً صاغية باهتمام إلى ناصحيه، كلهم رغّبوه بشطآن الخليج حيث العادات والتقاليد الواحدة والوطن الواحد والأهم من هذا وذاك البيئة الإسلامية هناك، وكلهم أقصوا تفكيره عن الغرب وما حوى من عادات ليست مثل عاداتنا، ومن بيئة ليست بأي حال بيئتنا. بعيدة عن سلوكنا وتربيتنا بُعد السماء عن الأرض.

هوّلوا له الخطوة الأولى التي يخطوها الشرقي أو العربي نحو الغرب كأنها دنو من نهاية لا يُحسد عليها.

صوروا له من يقصد الغرب كأنه يدنو من أجله، كأنه يجتث جذوره بيده، كأنه يتخلى برضا عن أهله ووطنه، كأنه يبتعد برغبة عن بيئته وتربيته، قالوا له إن أراد أحدهم السفر إلى الغرب، دخل بيته ليعد عدته كأنه مودع جميع من حوله الوداع الأخير، تبكيه أمه، وتنوحه زوجته، ويمضي إلى مغتربه لا يلويه شيء مما خلّفه وراءه حتى يبلغ مأربه، تراه يقلد الغربي في كل شيء. نشاطه، حرفته، رفاهيته، هيئته وهيبته، حتى في علاقته مع أهله ووطنه وهنا تكمن الخسارة. تراه يفشل في كل شيء إلا ولوجه السريع إلى مواطن الفجور، ولا يزال يقرع باب النشوز والبعد عن تربته ووطنه حتى يفتح له ذلك الباب على مصراعيه.

حكوا له قصة فلان، وسالفة علان، قالوا له: نادراً ما يكسب المال من يقصد الغرب، لكنه يهدم بقصد أو بدونه يوماً بعد آخر جسور علاقته بوطنه ومن فيه حتى تراه يتقاعس عن العودة ولو لحين إلى أمه الثكلى وزوجته المنتظرة. صوروا له ذلك القاصد برجوعه هو أشبه بسلحفاة، بينما بتغريبته أشبه بحمام زاجل لا يلوي من عزيمته أي شيء للوصول إلى مقصده حتى يقع في براثن اللهو وملاعب القمار والعياذ بالله، صوروا له عودة قاصد الغرب إلى وطنه حتماً ستكون لفظة من الغرب. كأنهم أكلوه لحماً ولفظوه عظماً، فتراه خرج من وطنه بأوجاع الحاجة ليعود إليه بأوجاع الضياع والرذيلة.

حكوا له قصصاً عديدة فيها أهوال جسام عن أشخاص قصدوا الغرب مؤكدين له أن مفاسد الأخلاق بأشكالها المتعددة والحضارة الغربية كما يسمونها أصبحتا بلا نقاش وجهان متشابهان، وتوأمان متلاصقان لا يمكن لأحد مهما طالت يداه من براعة واتقان أن يفصل بينهما. فظاظة، خشونة، خلاعة، استهتار، خيلاء، جبروت، بخل، جشع، خيانة، غدر، كذب، عصابات، كفر، عربدة، عبدة شيطان، وأمور أخرى بحجة حرية المعتقدات والرأي.

وأضافوا له قائلين: إن أشكال الاستعمار الفكري تنوعت وتغيرت، كان أولها المباشر، ثم تطور إلى فكرة الانتداب والوصاية، في كلا الحالتين كان عليه . الاستعمار . أن يتحمل مشقة ووعثاء السفر، الآن تغير الحال وأصبح الكثيرون من شبابنا العربي يهرولون إليه كي يحظوا باحتضانه، وبغسلة دماغ بقصد أو بدون من مقومات شرقيتهم. أصالتهم ورونقهم.

●●●

عرف الجميع عن عبدو ثقافته الواسعة واهتمامه الدؤوب بأدق التفاصيل وخاصة الجغرافية منها والتاريخية لأي مكان يقيم فيه ويتطلع إليه، لكن مع ولعه بمشروع التغيير بسفر. أمسى له التاريخ لا يروق له مع توأميه: آلامه وأحلامه.

مع بداية مشروعه، قضيته صبَت إلى جغرافيا (تغيير المكان)، وغفلت عن تاريخ (ماض تليد) خاصة عقب زواجنا وإنجاب طفلين وفي انتظار آخر، وإننا مثل معظم الشباب العربي نقبع تحت وطأة الحاجة بحاضر مأزوم وضرورة التأسيس لغد مجهول نتمناه أن يكون جميلاً.

استغرب عبدو من الكثيرين من أبناء جيله تغنيهم بماض ليس ماضيهم، ماض صنعه سابقون، ساءلهم بود عن الفائدة في تقليب صفحات ماضيهم الملونة، وترك صحائف حاضرهم بيضاء خاوية، مرة قال لي:

استغرب من قناعات البعض بـ "كما وجدناه عليه آباءنا"، هل هذا تعويض عن نقص في حاضرهم..؟ أين هم من قول ابن الوردي؟

لا تقل أصلي وفصلي أبداً     إنما أصل الفتى ما قد حصل

أنكرَ عليهم " العيش في جلباب الآباء" بتعليل: لنا حاضرنا وعلينا صنعه بأيدينا.

واستغرب قائلاً:

لماذا نترك شموس الماضي تنير لنا فضاء الحاضر؟ ألم نغدو مشغولين بماض لوّنت لوحاته بألوان حضارات وشعوب شتى تعاقبت على أوطاننا العربية منهم. الكنعانيون، العبرانيون، الآراميون، الحيثيون، البابليون، الفرس، الإغريق، الرومان، النبطيون، البيزنطيون، المغول، التتار، البرابرة، العثمانيون، الانكليز، البرتغاليون، الفرنسيون. ألم يأتو إلى مرابعنا بأمل الاستحواذ على ثرواتنا وأراضينا؟

عتبي شديد على من يتمسك بأهداب ماضية ليرى فيها حاضره، عجبي على من يرضى أن يبقى قابعاً تحت وطأة فجيعة ماضيهم ودسائس حاضرهم؟! هل تناسينا حاضرنا وما يجب ان نسعى فيه من أجل مستقبلنا ومستقبل أولادنا؟!

عجبي لمن ينشد أنغام ماض ليس ماضيه!! ماض كانوا هم فيه أسياداً ونحن أمام سياطهم صاغرين، نقوم لصحوتهم، نهَر لكبوتهم، نكدح لينعموا، نشقى ليسعدوا، نبكي ليضحكوا، نصغر أمامهم ليكبروا. ألم يحرمونا كي يشبعوا رغباتهم؟ عجبي وعتبي على كل من ينظر إلى أيامهم فينا تاريخاً زاخراً!!

سلبونا فاستكنا، فهل سنسمح لهم بشغل حاضرنا كي نبقى أمامهم خاملين؟ هل سنرضى بهكذا عبودية ممتدة؟ اعتبرونا (أفراداً وأوطاناً) وسيلة من وسائل دولهم وأداة من أدواتها، سعوا بما أوتوا من عظمة وجبروت أن يبنوا مجدهم بمعاولنا، فكانت لهم السيادة العليا المطلقة معتبرين أنفسهم أوصياء علينا والوصي دائماً في جانب الصواب، ونحن كنا أمامهم بجانب اللوم والعقاب، لا سبيل لنا للمطالبة بأبسط الحقوق وإن حدث ورفعت الأصوات كان دائماً لها الجلد والعقاب في المرصاد. أليست تلك عبودية؟

وأضاف:

هل وجب علينا ان نحفل بماضيهم؟ ونبقى دون حاضر ولا مستقبل؟ هل كان في ماضيهم علينا غير السبي، والقساوة، والظلم، والاستبداد، والدهاء، والمطامع؟!!

ألم نكن رماداً نتبدد تحت شهوات مطامعهم؟ ألم نكن أطفالاً نتصارع أمام دسائسهم؟ ألم يزرعوا فينا الطائفية والأحقاد ليجردونا من الأمن والأمان في أوطاننا؟!! هل علينا أن ننسى ونصفح عن حرائق المغول، وهمجية التتار، وأفعال العثمانيين، واتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ ووعد بلفور ١٩١٧، وحريق دمشق، وضم الجزر العربية أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى، وهل إن غفرنا لهم هذا هل ستسامحنا الأجيال القادمة؟! ونقول تاريخ. أي تاريخ صانعوه مجرمون قتلة؟!

همست حينها لنفسي متسائلة (لماذا كل هذه السوداوية والعصبية تجاه التاريخ؟ هل هي وجهة نظر وقتية؟! أم ماذا؟! انا التي ظننت أن نظراته إلى جارنا الجبل وزياراته له كان يستذكر معه وفيه تاريخ وشموخ البلد!!).

لم تقتصر عصبيته على مفردات حياتنا اليومية وحسب بل امتد مداها ليشمل التاريخ أيضاً رامقاً إياه بعين السخط وعدم الرضا. أليست هي السوداوية بنفسها!! صدق الإمام الشافعي حينما قال:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة... ولكن عين السخط تبدي المساوئ

من غير الممكن باي حال القول له (الحياة ستستمر يا صاحبي بك أو بدونك) كما يحلو للكثيرين في الرد على من حولوا حياتهم إلى شقاء إثر سوداوية قبعوا فيها لزمن طال أم قصر نظير ظروف عانوا فيها الأمرين.

نعم لا أستطيع قول ذلك لعبدو فهو أولاً وأخيراً زوجي وأب لأولادي. معه ستستمر حياتي شئت أم أبيت. وقتها سألت الله العلي القدير أن يخرجه من حالته تلك ويبدل سوادها بياضاً ناصعاً إنه على كل شيء قدير. فبلدنا جميل وتاريخنا زاخر ولكنهما أبهى إن نظرنا إليهما بعيون جميلة ونفوس راضية وقلوب مطمئنة.

أيقنت معه. فقط " التغيير" سوف سيضفي على حياتنا جواً منعشاً وستتفتح معه صفحات جديدة بيضاء سيلونها عبدو كما يشاء بنية إيجابية إن شاء الله. رغم أنني من المؤكد لي أن في سفره سأفقد السند والحبيب.

سألته مرة:

- هل هي ثورتك على التاريخ أم حرصك على صنع حاضرنا بأيدينا؟!

ردّ عليّ. بينما كان يعبث ببعض من أشيائه، لمحت في عينيه أنه قد عرف بأنني غير مقتنعة معه بسخطه على التاريخ:

- تعلمين حقاً انني أرشف من عشق بلدي وتاريخه حتى الثمالة، لم اتنكر يوماً لتاريخٍ نحن فاعلوه، كلنا يجب أن يعتبر أن هذا النوع من التاريخ كنزاً وحافزاً لنا ولأولادنا في الحاضر والمستقبل، فالعيب ليس في تاريخنا الحافل وإنما العيب فينا حينما نتغنى بتاريخ لسنا صانعوه، تاركين حاضرنا هزيلاً لاهثين وراء اكتشافات ولقى ماضيهم، ألم يحدثنا تاريخهم عن العبودية بأشكالها؟ ألم ير الرومان فيها متممة لرفاهيتهم وراحتهم؟!!! ألم يسع الفينيقيون إلى إيجاد مصدر آخر للعبودية غير أسرى الحرب من خلال الاختطاف سواء بالقوة أو بالإغراء؟! ألم يكثر عدد أرقاء الزراعة عند الإغريق؟! ألم يستبدل الصليبيون أسواق النخاسة بأرقاء كانوا يشترونها من قبائل على شواطئ الأدرياتيكي؟ ألم يغير الاتراك مفهوم العبودية العام إلى عبودية فكرية من خلال مطاردة من تعلم وتنور من شعبنا العربي؟! ألم يسعو إلى احتباسنا في قوقعة الجهل والظلام المعرفي ما يزيد عن أربعة قرون ونيف؟!
- أما كان للإنكليز والفرنسيين شأنٌ آخر في العبودية، ألم يحكمونا بأساليب متعددة؟ سمعنا وشهدنا الكثير عن سياساتهم الظالمة "اتفاقية تقاسم، أرض محروقة وفرق تسد". ألم يمارسوا علينا العبودية الإقطاعية والعبودية المدنية. ألم يستعمرونا بحجة الوصاية فسلبوا منا كغيرهم مزايا الإقدام والشهامة والابداع إلا ما ندر أو ابتعد؟! ألم نصبح وقتئذ خاملين مكرهين قابعين تحت سطوتهم عقوداً من الزمن؟! ونقول تاريخ. أي تاريخ صنعه انتهازيون، مجرمون!!

وأضاف قائلاً:

- للكل تاريخ واحد، وللأسف لنا تاريخان، واحد مبك مضن عانينا فيه ومنه الأمرين. نقرأ فيه عن طغيان وظلم وجبروت ونهب واستعمار واستنزاف